

الفصل الثاني

الإطار النظري والمفاهيم

- المناخ الأسري .
- السياق الثقافي لنمو المراهق .
- الأسرة .
- المراهقة .

أولا : المنساج الأسرى

تمهيد :

نحتاج اليوم إلى أن ننظر إلى شخصيات أبنائنا وارتقائها من منظور أكبر من مجموعة الأخذ بعين الاعتبار العوامل النفسية والشخصية فقط ، والتي قد تم بحثها بشكل واسع من وجهة نظر الشخصية .

فالعوامل البيئية ، كما يشير إلى ذلك كاتل ، كتأثير الآباء والأمهات وتكوين الأسرة والأقران والنادى ودور العبادة والمستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . . . وهكذا . وتأثير هذه العوامل على الشخصية وارتقائها ، لم تلق اهتماما كافيا من علماء الاجتماع فقط ، بل من علماء النفس أيضا (١٢٣ : ٥٢٦) .

ويشير فريسن ، Friesen ، ١٩٨٨ (٩٣ : ١٦ - ٩٧) إلى أنه على الرغم من تعارض موقف علماء الاجتماع مع موقف علماء النفس ، إلا أنهم على استعداد للاتفاق على بناء نظرية تجمع بين الموقفين ، علما بأن بناء مثل هذه النظرية سيتطلب إعادة ترتيب ، بحيث لا يكون التركيز على النظام الأكبر (Macrosystem) أو النظام البيئي (Ecosystem) أو النظام المتوسط (mesosystem) وهو الاتجاه الشائع في علم الاجتماع ، أو على النظام الأصغر (Microsystem) وهو اتجاه علم النفس ، بل يجب أن يكون التركيز على التفاعل والأبنية (Structures) مثل الأسرة والمدرسة والمجتمع الذى ينتمى إليه الفرد .

ويركز هذا الاتجاه الجديد على الإسهامات المتبادلة لكل من الفرد والبيئة والتفاعل المتبادل بينهما ، ويسمح بالاستخدام الكامل للتراث السسيولوجى والسيكولوجى ، أى التوجه نحو الفرد والبيئة ، بالإضافة إلى عوامل التفاعل بينهما ، وذلك من أجل فهم أفضل وأكمل .

ويمدنا هذا الإطار الاجتماعى - البيئى ، كما يشير إلى ذلك مونس ومونس Moos & Moos بمنظور مميز للعلاقات المتبادلة بين الفرد والبيئة ودورها فى تحقيق التكيف للفرد (١٦٩ : ١٥٨) .

مفهوم المناخ الأسرى :

يختلف الباحثون في تصورهم للمناخ الأسرى ، قدر اختلاف الأسر بعضها عن بعض ، فبصرف النظر عن السكن (الإقامة) وما يظهر فيها من ميزات مثل التجهيزات أو استخدام الأدوات الحديثة . . . وهكذا ، أو من عيوب وقصور . . . ، فإن سماع كلمة أسرة تعنى معان متعددة لمختلف الباحثين كل حسب توجهه النظرى ، فالباحثون في ميدان علم الاجتماع يختلفون عن أمثالهم في علم النفس أو الأنثروبولوجى ، على الرغم من أنهم قد يتفقون في بعض الأمور الخاصة بالفرد فى أسرته .

كما أنهم محكومون بتصوراتهم المسبقة عن حياتهم الأسرية . وبناءً على ذلك ، فإن الأسر تختلف في التأثير الذى تتركه على الباحثين سواء كانوا من داخلها أو خارجها .

وعلى الرغم من هذه الاختلافات فإن لكل أسرة مناخها الذى يجعل منها أسرة (بنية اجتماعية) ، لها طابعها الفريد عن غيرها . وهذه النتيجة السابقة ، ضرورة ، لأنه ليس من السهل دراسة مناخ كل أسرة على حده ، بل دراسة نمط مناخى يشمل عدداً من الأسر سواء المتشابهة أو المتنوعة ، وعليه ، فثمة ضرورة لتحديد مفهوم المناخ ، حتى يتسنى تحديد الأبعاد التى يقاس المناخ على أساسها ، حيث أن تحديد الأبعاد يساعد على إعادة صياغة مفهوم المناخ بصورة أكثر تحديداً .

لقد استخدمت مفاهيم كثيرة لوصف المناخ ، فعلى سبيل المثال أطلق عليه (مناخ مستقر — مناخ غير مستقر — مناخ سعيد — مناخ غير سعيد — مناخ محافظ — مناخ تقدمى) .

ولقد وضعت هذه المفاهيم على أساس ملاحظة سلوك أعضاء الأسرة ، من حيث علاقاتهم معا وتفاعلاتهم واستقرارهم وهدوئهم . ورصد الاتجاهات السائدة داخل الأسرة نحو الموضوعات المختلفة ، والنمو المتاح لشخصيات أعضائها ومدى تكيفهم النفسى .

وتشير هذه الاتجاهات — إلى حد ما — لما يمكن تسميته بالمناخ السائد في الأسرة ، وهو مفهوم ضرورى لتحديد سلوك الفرد ، داخل الأسرة . حيث يشير البادى ، ١٩٧٩ ، (١٢ : ١٢ - ١٣) إلى أن المناخ النفسى هو عبارة عن المواقف أو الاتجاهات النفسية العامة التى يتخذها كل جمهور نوعى تجاه كل ما يتصل بالمؤسسة (بالأسرة) التى ترتبط بها مصالحه وقد تكون هذه المواقف أو الاتجاهات النفسية إيجابية ، فىكون المناخ النفسى صحيا ، صالحا لتطورها وتقدمها . وقد تكون سلبية فىكون فاسدا وغير صالح ومن هنا كانت أهمية المناخ النفسى وخطورته .

وتتمثل خطورة المناخ النفسى فى أن المواقف أو الاتجاهات النفسية التى يشملها لا تتكون من أبعاد بسيطة ولكنها أبعاد متنوعة ومتداخلة ومتفاعلة ، كما سيتضح عند الحديث عن أبعاد المناخ .

ويتفق الباحث الحالى مع (يونس — نعيمه ، ١٩٨٣) (١٢٦ : ١٤) فى أن هذه الأبعاد ليست من وضع الأسرة وحدها أو من صنع أعضائها ، وإنما تشتمل على أبعاد أو سع من ذلك وأشمل . كما أن المناخ النفسى هو ناتج تفاعل هذه الأبعاد جميعا ، وهو الذى يحدد مدى نجاح أى أسرة ، لأنه غالبا ما يحدد نوعية سلوك أعضائها تجاهها .

وإذا ما حاولنا تعريف وتحديد المناخ الأسرى السائد ، فإننا سنواجه بمشكلات نظرية وإجرائية ، على الرغم من أنه ليس ثمة صعوبة فى قبول حقيقة أن لكل أسرة مناخها المميز ، وأن هذا المناخ ينظر إليه بطرق متباينة من جانب مختلف الدارسين كما سبق ذكره .

وتوجد فروق فردية فى الحساسية إزاء جوانب أو أبعاد المناخ الأسرى ، مثلما توجد فروق فى تفسير ما هو ملاحظ وفق ماتمليه ذاتية الباحث .

ومنذ أوائل الستينيات بذلت جهود مركزة ومتنوعة لفهم وقياس المناخ فى المؤسسات التعليمية ، وقد ظهر قدر من الخلط والغموض فى استخدام مفهوم المناخ (١٢٦ : ١٤) ، ومنذ أوائل السبعينيات بذل موسى وزملاؤه (١١٦) جهـودًا

مركزة ومتواصلة لفهم وقياس المناخ ، في كل من البيئات الأسرية والمؤسسات العلمية والعلاجية ، وقد توصل إلى نظرية عن المناخ ، أمكن من خلالها تحديد أبعاده في البيئات المتنوعة (الأسرة ، العمل ، المدرسة ، المستشفى وهكذا) .

ويرى الباحث ضرورة استعراض بعض المحاولات التي بذلت لتحديد هذا المجال الحديث ، سواء بالنسبة للأبعاد المتنوعة التي قد تشكل المناخ ، أو بالنسبة لمفهوم المناخ الاجتماعي ككل والأسرى خاصة ، وذلك بتناول بعض التصورات النظرية التي أعطيت للمفهوم في الأطر المرجعية التي تستند إلى نظرية معينة .

التصورات النظرية للمناخ الاجتماعي

تستند التصورات النظرية للمناخ الاجتماعي في أطره المرجعية على بعض نظريات التنظيم الاجتماعي وبعض الأطر التصورية الحديثة التي تحدد المكونات الأساسية للأنظمة الاجتماعية البيئية وهي كالآتي : —

١ - نظريات التنظيم الاجتماعي : (١٢٦ : ١٥ - ٢٠)

وبصفة خاصة نظريات النظم الاجتماعية Social systems theory والدور

Role Theory والمسيرة Compliance theory

التي توحد بين وجهات النظر التي تستند إلى روح القوانين واللوائح التي تحكم الأبنية الاجتماعية ، ووجهات النظر التي تستند إلى مايسود بين الأفراد داخل تلك الأبنية من علاقات إنسانية . وتهدف وجهات النظر هذه إلى الوصول إلى مركب قوامه (البناء الدينامي وعمليات التفاعل بين الأفراد داخل البناء) ، وبذلك تتعدد أنواع المناخ الذي يسود الأبنية أو الأنظمة الاجتماعية ، طبقا لتغلب وجهة نظر على أخرى .

أ- نموذج النظم الاجتماعية : The social systems model

يستند نموذج المناخ داخل البناء الاجتماعي (مؤسسة ، مدرسة ، أسرة .. وهكذا) في تصوره على نظرية النظم الاجتماعية الحديثة ، التي تتمثل في احتواء البناء أو النظام على مجموعة من المدخلات تنظم في أنماط ثابتة ومعقدة ، وهذه الأنماط في تفاعلها تحدد نتاج السلوك الإنساني داخل النظام ، ومن ثم تتضح مفاهيم النظم (المفتوحة والمغلقة) في ضوء تفاعلها مع البيئة الخارجية لهذا النظام وتوقفها على الأنظمة الفرعية التي تتفاعل تفاعلا ديناميا بعضها مع البعض . حيث يتصور لوندال Londale (١٩٦٤) أن عملية التفاعل التي تتم بين الأنظمة تعبر عن درجة من درجات التجاوب والتفاعل المتبادل الذي يحدث عبر الحدود التي تفصل بين كل نظام وآخر ، مثل التفاعل الذي يحدث بين مدرس العلم — وأمناء المعامل وإدارة المدرسة للحصول على الخامات اللازمة للتجارب العملية، وكذلك بين مختلف الأنظمة الفرعية الموجودة في النظام العام في المؤسسة أو البنية الاجتماعية — هذا التجاوب

والتفاعل هو الذى يحدد ما إذا كانت المؤسسة ذات نظام مفتوح
أو مغلق (١٢٦ : ١٦)

ب - نموذج نظرية الدور : Role Theory model

يستخدم نموذج جتزل Getzel (١٩٦٢) للنظم الاجتماعية ، بنى
نظرية الدور فى تحليل السلوك التفاعلى بين الجماعات طبقا لنموذج النظم
الاجتماعية ، فى الوقت الذى تعتمد نظرية الدور على الأبعاد الأساسية
لنظرية الشخصية ، وتنظر إلى التفاعل الدينامى الذى يحدث بين
حاجات شخصية الفرد ومطالب الأدار داخل النظام الاجتماعى والبيئة
الخارجية ، على اعتبار أنها جميعا تحقق توازنا ديناميا يحدد لنا
المناخ السائد داخل النظام (١٢٦ : ١٦) .

ج - نموذج نظرية المسايرة والمغايرة : Liance and Alienative ry model

تعتبر نظرية المسايرة والمغايرة الأساس المستخدم لفهم المناخ داخل
النظام الاجتماعى ، آخذة فى الاعتبار الصراع الذى يمكن أن يحدث
داخلها بين أعضاء هذا النظام .
وتذهب أرجيريس Argyris (١٩٥٨) إلى أن المناخ يتحدد بعوامل
التفاعل بين الأفراد التى يتحكم فيها النظام الاجتماعى ، بفرض تخفيف
حدة الصراع أو عدم توافق الكائن داخلها . وقد يتم إشباع حاجات تحقيق
الذات لدى الفرد فى المناخ الذى يسود ، أقل قدر من التهديد ، كما
أن العقد النفسى Psychological contract الذى
يبرم بين الفرد والنظام الاجتماعى ، والذى يتضمن إشباع حاجات الفرد
وتحقيق أهداف النظام الاجتماعى ، يحل محل العقد الرسمى
Formal contract الذى يبرم على أساس أن هناك عملا
يؤدى وجزاء يُمنح .

كما تذهب نظرية المسايرة - كما يذكر اتزيون Etzion (١٩٦١) -
إلى أن عوامل الضبط فى النظم والأبنية الاجتماعية ، تعتبر أكثر أهمية
من عوامل التفاعل بين الأفراد لإرساء دعائم الراحة النفسية والاطمئنان

بين أفرادها حيث تحدد عوامل الضبط مدى اندماج الفرد الذى يؤثر فى علاقات التفاعل بين الأفراد والتي وضعتها نظرية النظم الاجتماعية ونظرية الدور (١٢٦ : ١٢) .

٢ - أطار برونفنبرنر (Bronfenbrenner, 1979)

يؤكد برونفنبرنر على أهمية النظام البيئى والشخصية الإنسانية ، ويتكون أطواره من مجموعة من العوامل التى يعتمد بعضها على بعض ، وتؤثر بدورها فى التكيف الإنسانى ، حيث يشكل العامل الشخصى بعدا واحدا فقط ، بينما تشمل الأبعاد الأخرى النظام الأصغر (Microsystem) ، والنظام المتوسط (Mesosystem) ، والنظام البيئى (Ecosystem) ، والنظام الأكبر (Macrosystem) ويتكون النظام الأصغر من العلاقات بين الأفراد ، والنشاطات الموجهة نحو تحقيق الأهداف والتوقعات والأدوار التى يمارسها الفرد فى محيط معين مثل الأسرة أو المدرسة أو العمل .

بينما يتكون النظام المتوسط من التفاعلات والعلاقات بين النظام الأصغر الرئيسى ، مثل الأسرة والمدرسة والعمل مثلا ، وذلك خلال فترة معينة من حياة الفرد .

أما النظام البيئى فيتكون من الظروف التى تشمل أو تصطدم بالأوضاع المباشرة للفرد النامى مثل الحالة الاقتصادية والاجتماعية ، أو تأثير عمل الآباء والأمهات .

ويمثل النظام الأكبر المعتقدات الثقافية والأيدولوجيات والأخلاقيات فى المجتمع الواحد ، مثال ذلك أن الاعتقاد السائد بأن السنوات الأولى من عمر الطفل يجب أن تخصص للتعليم المدرسى ، قد أدى إلى انتشار نمط ثقافى فى العالم الغربى مؤداه أن الشباب لا يشاركون بفعالية فى ميدان العمل .

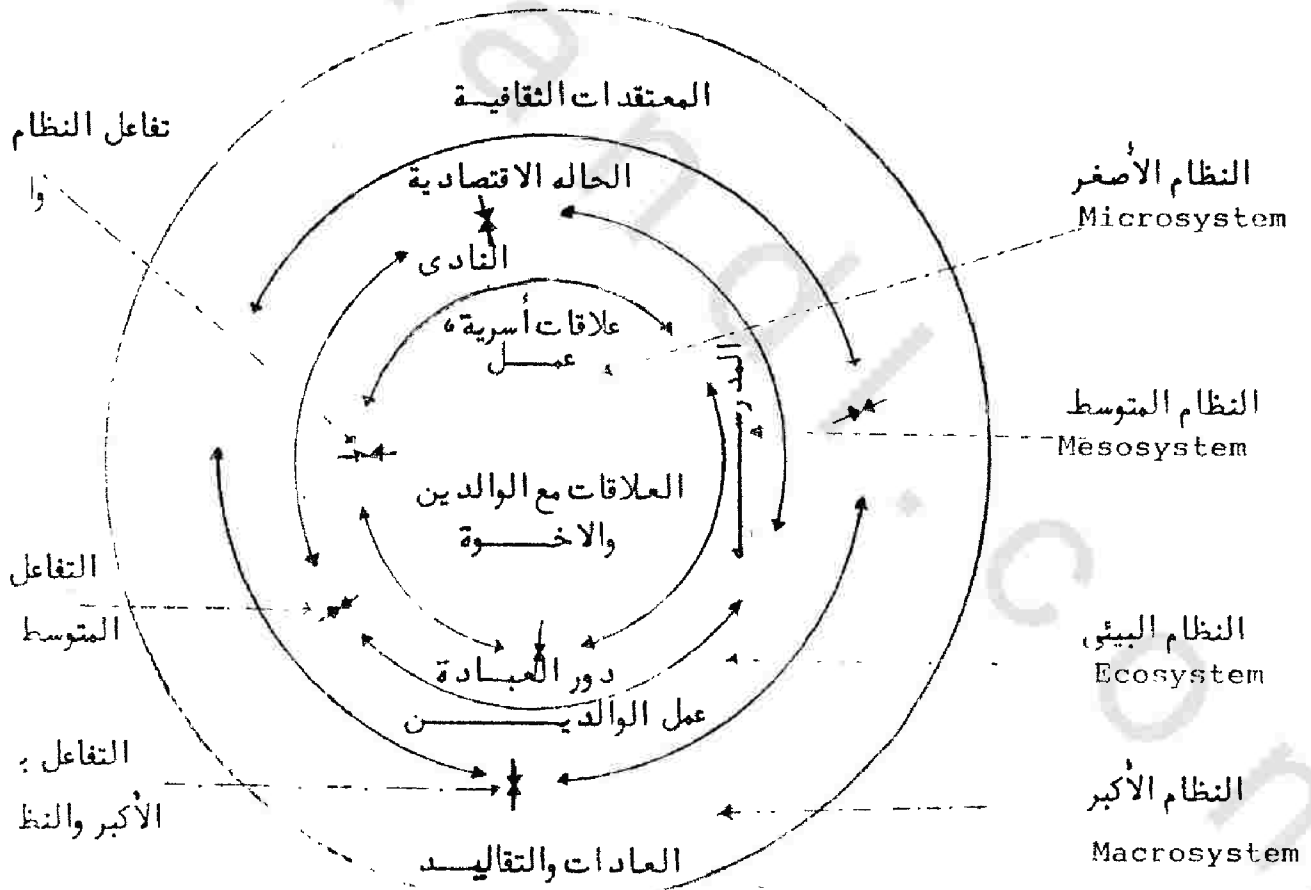
لذا فإن الدراسات والأبحاث التى تنشأ من هذه الأنظمة تتطلب استخدام تصميمات متعددة ومتنوعة ، بحيث تتضمن مجموعة من المتغيرات الأسريّة ،

مثل المستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعرق وحجم الأسرة وتكوينها وأنماط التفاعل وأساليب التنشئة الاجتماعية ... الخ (٩٣ : ٩٨) و (١٦٧ : ١١٢) . ويأمل الباحث الحالي أن يفسى تصميم الدراسة الحالية ببعض متطلبات هذه الأنظمة .

كما يتصور الباحث الحالي إطار برونفنبرنر في الشكل التالي (شكل ١) الذي يوضح العلاقة بين أنظمة هذا الإطار والتفاعلات بينها .

شكل (١)

(أنظمة إطار برونفنبرنر وعلاقتها معا كما يتصورها الباحث الحالي)



٣ - إطار موس ١٩٨٤ (١٦٥)

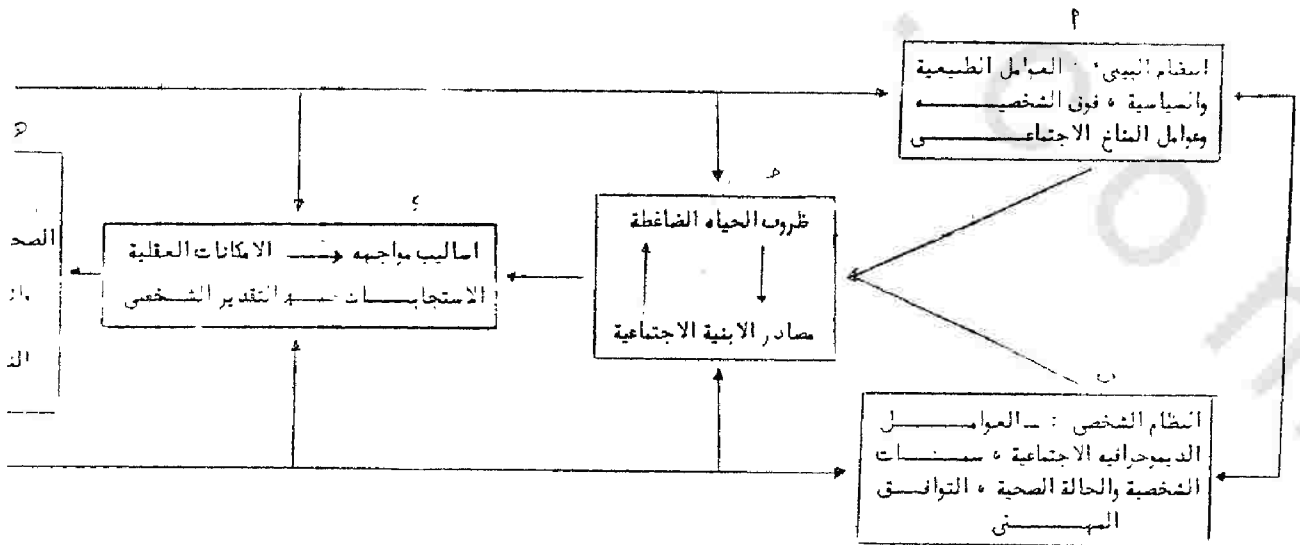
قدم موس وزملاؤه إطاراً تصورياً يشمل مجالات السياق الاجتماعي والبيئي ويفيد هذا الإطار في الكشف عن الضغوط البيئية وكيفية مواجهتها، لتحقيق التكيف الإنساني . كما يفيد في تغيير وتطوير البناءات الاجتماعية كالأُسرة، والمدرسة .

وقد تسأل موس وزملاؤه في البداية عن أهم الخصائص الاجتماعية الإنسانية وعلاقتها معاً وما بينها من تفاعلات تُمكننا من تصورها كأنظمة — أو أبنية بيئية ديناميكية . كما تسألوا أيضاً عن أهم المصادر البيئية المحلية التي تساعد الأفراد على اختيار وتشكيل الأنظمة البيئية ، وكيفية استخدام هذه المصادر لتحقيق التكيف ، أو على الأقل مواجهة أو التأقلم — Coping مع أزمات الحياة التي لا يمكن تجنبها والأوضاع الاجتماعية المحلية غير الإنسانية ؟

وللإجابة على ما سبق وضع موس وزملاؤه نموذجاً للأنظمة يوضح العلاقات بين العوامل الشخصية والبيئية والتكيف ، كما يتضح من شكل (٢)

شكل (٢)

نموذج العلاقات بين العوامل الشخصية والبيئية والتكيف



يوضح النموذج السابق في شكل (٢) العلاقات بين ظروف الحياة الضاغطة التي يعيشها الفرد وعمليات التكيف المتأثرة بالنظام البيئي (الإطار أ) والنظام الشخصي (الإطار ب) وأيضا مصادر الأبنية الاجتماعية ففى علاقاتها بظروف الحياة (الإطار ج) وكذلك أساليب المواجهة واستجابات التقدير Appraisal الشخصية (الإطار د) وما يجدر ذكره أن النظام البيئي يتكون من الخصائص الطبيعية والمشيده والعوامل السياسية والبروجرامية program والعوامل فوق الشخصية suprapersonal مثل الخصائص الناتجة من تجمع مجموعة من الأفراد فى بيئة محلية ما وترتبط بهم فقط مثل "طلاب الجامعة" "أساتذة الجامعة" ، "ضباط الشرطة" بالإضافة إلى عوامل المناخ الاجتماعى التى تنبثق من حياة الأفراد مثل أسرهم وأقرانهم . ويتكون النظام الشخصى من الخصائص الديموجرافية الاجتماعية للأفراد وبعض سمات الشخصية مثل تقدير الذات والإمكانات العقلية ، ومهارات وأساليب حل المشكلات العامة والخاصة والحالة الصحية والأعباء الوظيفية والمهنية . وتشمل ظروف الحياة الضاغطة ، الأحداث البارزة الوقتية (مثل تحطم سيارة الزوجة أو الإبن دون إصابة أحد) والأحداث ذات الأمد الطويل (الانفصال عن الأسرة ، الطلاق ، مشاكل الأبناء الدراسية) وضغوط الحياة المزمنة (الزواج التعسوقيود ، وجود إبن معوق فى الأسرة ، إصابة أحد الوالدين بمرض مزمن) . أما مصادر الأبنية الاجتماعية فهى تتكون كما يفترض هذا النموذج من النظام البيئي والنظام الشخصى السابق الإشارة إليهما ، فى تفاعلها مع ظروف الحياة الضاغطة ، أى أن الإطار أ ، ب ، ج (النظام البيئي والشخصى والظروف الضاغطة) تشكل مصادر الأبنية الاجتماعية التى تتأثر معا وتؤثر فى الإطار د (الصحة الجسمية والتكيف النفسى) وذلك من خلال الإطار د ، الذى يشمل أساليب واستراتيجيات

المواجهة* التى يتبعها الفرد ، واستجابات التقدير الشخصى —
(أى الاستجابات ذات العائد الشخصى على الفرد، مثل الاستجابات التى
تؤدى إلى الشعور بتقدير الذات) .

وكمثال على هذا النموذج ، يوضح موسى أنه فى حالة ارتكاب الجيران لجرائم
(عامل بيئى) وعند معرفة أقرب الجيران لها ، فإنهم يسلكون معهم —
أسلوباً حذرًا ويقللون (عامل شخصى) ويؤدى هذا إلى استشعار الخطر وتهديد
الأمن الشخصى (تقدير عقلى) ، وبالتالي شراء أقفال وترايبس للأبواب
والشبابيك (أساليب مواجهة) وعليه يحقق الفرد نوعاً من التكيف يلائم
التغير الحادث فى النظام البيئى ويحد هذا التكيف أو يقلل على الأقل
من تأثير هذه الأحداث الضاغطة (مثل توقع سرقة الجيران للمنزل أو إيذاء
أحد أفراد الأسرة) .

ويشير موسى إلى أن عدم توحيد اتجاه الأسهم بين أطر النموذج ، يعكس
حقيقة أن العمليات المكونة للأطر تؤدى كل منها إلى الأخرى ، مع الأخذ
فى الاعتبار حدوث التغذية الراجعة والمتبادلة التى قد تحدث فى كل مرحلة
من مراحل هذا النموذج .

* سلوك المواجهة : (coping behavior) نمط سلوكى ييسر التكيف
مع البيئة بهدف تحقيق هدف ما (٢٠٨ : ٧٩) . أما استراتيجيات المواجهة
هى الوسائل التى بواسطتها يتكيف الفرد مع الضغوط ويستفيد من الفرص .

أنماط المناخ الاجتماعي

بعد أن وضع موس وزملاؤه النموذج السابق (شكل ٢) والذي يوضح العلاقة بين العوامل البيئية والشخصية من ناحية والتكيف الإنساني من ناحية أخرى ، قاموا بإعداد مجموعة من المقاييس لتحديد أنماط المناخ الاجتماعي وذلك من خلال ثلاثة مجالات رئيسية ، بها يمكن وصف المناخات الاجتماعية البيئية المتباينة ، وهذه المجالات هي :

— العلاقات : أي إلى أي مدى يرتبط الأفراد ببعضهم البعض ويساند كل منهم الآخر ، أي طبيعة العلاقات بينهم .

— النمو الشخصي : أي اتجاهات النمو الذاتي التي تجد تأكيداً في المناخ .

— المحافظة على النظام : أي البناء التنظيمي الأساسي لهذا المناخ (١٦٥ : ٨-٩) ، (١٦٩ : ١٥٨-١٥٩)

والمقاييس التي تم إعدادها هي : (١٦٦ : ٤-٥ ، in press)*

١ — مقياس المناخ الأسري (FES ; Moos & Moos, 1986)

٢ — مقياس المناخ المدرسي (CES ; Moss & Trickett, 1986)

٣ — مقياس المناخ المؤسسي (WES ; Moos , 1986 b.)

ويوضح كل مقياس الأبعاد النفسية المرتبطة بهذه البيئة ، فعلى سبيل المثال ، الأبعاد النفسية في البيئات المؤسسية (المناخ المؤسسي) **

The Work Environment Scale (WES) هي

— العلاقات : وتشمل متغيرات الانغماس في العمل

(Involvement) وتماسك الرفاق (Peer cohesion)

وتعاضيد العاملين (Staff support)

* حصل الباحث على هذه المقالة مع مجموعة دراسات أخرى بمكاتب شخصية

مع البروفسور R.H. Moos بجامعة كاليفورنيا ، وقد أبلغه أنها

ستنشر في كتاب : The study of Learning environments , B. Fraser (Ed.) ,

Assessment Research, Salem , oregon

** ترجم هذا المقياس فتحى السيد عبد الرحيم في الكويت عام ١٩٨٣ .

- .. النمو الشخصي : ويشمل متغيرات الاستقلال (Autonomy) وتوجيه العمل (Task orientation)
- .. المحافظة على النظام وتغييره : ويشمل متغيرات ضغط العمل (work Pressure) والوضوح (clarity) والضبط (control) والتجديد (Innovation) والراحة البدنية (Physical comfort) (١٦٩ : ١٥٩)
- أما المناخ المدرسي : (The classroom Environment scal (CES) فالأبعاد النفسية للمناخ كالآتى :
- .. العلاقات : وتشمل الانغماس فى الدراسة involvement والاندماج المدرسي Affiliation تعاضد المدرسين Teacher support
- .. النمو الشخصي : ويشمل توجيه الدراسة Task orientation والمنافسة Competition
- .. المحافظة على النظام : التنظيم organization وضبط المدرسين Teacher control (١٦٥ : ١٠)
- والمناخ الأسرى : (The Family Environment scale (FES) يشمل الأبعاد الآتية :
- .. العلاقات الأسرية : ويشمل متغيرات التماسك الأسرى cohesion وحرية التعبير عن المشاعر Expressiveness وصراع التفاعـل الأسرى . conflict
- .. النمو الشخصي : ويشمل متغيرات الاستقلال Independence والتوجيه نحو التحصيل والإنجاز Achievement والتوجيه العقلى الثقافى والتوجيه الترويحى الإيجابى ، والتوجيه نحو القيم الدينية والخلقية .
- .. المحافظة على النظام : ويشمل متغيرى التنظيم والضبط (ذكرت تعريفات هذه المتغيرات فى الفصل الأول ص ١٢ ، ١٣)
- ويتضح مما سبق أن موس وزملاؤه يصنفون المناخات الاجتماعية البيئية على أساس ثلاثة مجالات رئيسية وهى العلاقات والنمو الشخصى والمحافظة على النظام والتي

من خلالها يمكن تحديد أنماط المناخ طبقا لنوع البيئة الاجتماعية ، فهناك المناخ الأسرى والمناخ المدرسى والمناخ المؤسسى (للمؤسسات العملية والعلاجية والإصلاحية) .

أبعاد المناخ الأسرى

كما سبق ذكره ، أن المناخ الأسرى أقل صعوبة عند وصفه وأكثر صعوبة عند تحديده ، لذلك فإن الحاجة ماسة للبحث عن أبعاد للمناخ الأسرى . وقد أوضحت عدة دراسات بعض الأبعاد التى يمكن اعتبارها أبعاداً للمناخ وهى كالتالى :

— أظهرت الدراسة المبكرة التى أعدها معهد فلز للبحوث لوصف أنواع السلوك السائدة فى أجواء البيت والأسرة ، عدة صفات للسلوك السائد وهى كالتالى :

الحرية ، الضبط ، الاستثارة ، الخمود ، الانسجام ، سوء التكيف ، الاستحسان ، الاستنكار ، المعقولية ، الانفعالية ، الاجتماعية ، الفردية (٣٢ : ٤٥٢) . وأشارت رمزية الغريب (١٩٦٠) إلى مايسود الأسر السعيدة من : علاقات الود والعطف ، والتعاون ، الاهتمام والعناية بين الوالدين (٢٣ : ٥٣ - ٩٩) . ويؤكد ستوت (١٩٦٧) على نواح أربعة تشكل الجو النفسى الأسرى وهى : — الاتجاهات والمشاعر المتبادلة ، والمناخ الانفعالى للأسرة ، وتبادل الميول وأوجه النشاط ، وتوجيه الوالدين (٥٧ : ٣٥٥) .

— نبه جور Gore إلى أنه ليس المهم نوع المعيشة ؛ أى فى بيت واحد أو بيوت متفرقة ، وإنما العامل الحاسم هو نوع التفاعلات داخل الأسرة ومدى كثافتها (٦٢ : ٤٢٥ - ٤٢٦) .

— ووجد موسى أن طبيعة العلاقات السائدة بين أعضاء الأسرة ومدى مايتيحها من نمو ذاتى لأعضائها ومدى التنظيم فى البناء الأسرى والضبط الذى تمارسه الأسرة تجاه كل عضو من أعضائها (١٦٣) .

— توصلت رقيه محمد رشدى (١٩٧٩) إلى بعض أبعاد المناخ الاجتماعى فى جماعة (مصنع للنسيج) وهى :

* مظاهر التماسك (وتشمل جاذبية الجماعة ، تجانس الجماعة ، الولاء للجماعة
علاقات الانسجام والود في الجماعة ، الامتثال للمعايير
الاجتماعية للجماعة) . وبناء العلاقات الاجتماعية وأسلوب
الاتصال في الجماعة ، وأسلوب القيادة ، وخواص الجماعة
(٣٣ : ٢٩١ - ٣٠١) .

— وتوصلت رمزي — ناهد إلى الأبعاد التالية عند دراستها للتفاعل الاجتماعي
للإناث — أبعاد الأب (القبول ، تقييد الحرية ، التقارب ، السيطرة ، التحرر
الابتعاد أو الانفصال ، التدخل ، المحافظة) وأبعاد الأم (التفاهم
أو التقارب ، تقييد الحرية ، الرفض ، الحرية الكاملة تحت الرقابة ، التدخل
المحافظة ، الرعاية الزائدة ، الانفصال أو الابتعاد ، التحرر ، التشدد
أو التزمّت) ، وقد وضعهم التحليل العامل في ثلاثة أبعاد هي :
الحرية في مقابل التقييد ، والتقارب في مقابل التباعد ، والتحرر في مقابل
المحافظة (٥٥ : ٩٩ - ١٢٤) .

— وأشار الفقي (١٩٨٤) عند دراسته عن مفاهيم العلاج النفسي وأنماط التفاعل
داخل الأسر المريضة إلى أهمية العلاقات الأسرية (٢٥ : ٧) .
ويتفق مع مايراه يونج من أهمية التفاعل الاجتماعي داخل الأسرة وخاصة في
تكوين الشخصية (٣٦ : ٨٠ - ٨١) ويرى حسين وآخرون (١٩٨٢) ضرورة
تضمين بعد عدم الاتساق في أي معالجة بحثية متكاملة ، ويعني الاتساق
عبر المواقف لفرد ما ، والإنسان بين كل فرد وآخر ، حيث تدل الأخيرة
على انعكاس التفاعل (٤٤ : ٢٢) .

— وقد وجد عبد المجيد (١٩٨٦) أن أبعاد المناخ الأسري هي :
الديمقراطية ، التعاون ، الحب والوفاق ، الجو الاجتماعي المريح (٨٣) .
— وأشار أعضاء "سمنار" معهد الدراسات والبحوث التربوية (أ . د . عطيه هنا ،
أ . د . رمزيه الغريب ، أ . د . حامد عبد السلام زهران ، وأعضاء قسم
علم النفس بكلية التربية بالفيوم) في العام ١٩٨٧/٨٦ إلى الآتي : الحرية
الشخصية ، التوافق المنزلي ، السعادة الزوجية ، القدوة .

— وقد وجد الباحث الحالى ، الأبعاد الآتية ، عند دراسته الاستطلاعية لإعداد مقياس المناخ الأسرى (الفصل الرابع) :

علاقة الوالدين بالأبناء ، العلاقة بين الوالدين ، أمور البيت ، مذاكرة الأبناء ومظهرهم وعلاقاتهم معا ، الصفات الشخصية للوالدين أو لأعضاء الأسرة ، الترابط والمحبة بين أعضاء الأسرة ، الرحلات والترويح ، العلاقة مع الجيران تعليم وعمل الوالدين ، الأمور الدينية ، استقلال الأسرة ، العلاقة مع العائلة الأكبر ، علاقات المحيط الاجتماعى الأكبر (البيئة) ، عدم الإنجاب . ويتضح مما سبق تعدد وتنوع الأبعاد التى قد تشكل المناخ الاجتماعى عامة والمناخ الأسرى خاصة ، إلا أن بعد العلاقات الأسرية أو التفاعل الأسرى من أكثر الأبعاد شيوعا بين الباحثين ، ثم الحرية عموما .

وما يجدر ذكره أن معظم النتائج السابقة والخاصة بالمناخ الأسرى لم تستند إلى تصور نظرى مسبق ، سوى أبعاد المناخ الأسرى لموس ، والبعض الآخر استمد من دراسات أمبيريقية مثل دراسة عبد المجيد ، والدراسة الاستطلاعية للباحث الحالى . وهنا نتساءل إلى أى مدى يمكن أن تتفق نتائج الدراسات الإمبيريقية مع نتائج الدراسات التى تستند إلى نظريات محددة (وخاصة نظرية موس وزملائه) ؟ ، ويمكن صياغة هذا السؤال بطريقة أخرى :

— إذا اعتبرنا أن النتائج المستمدة من دراسات تستند إلى نظرية محددة أفضل من نظائرها الإمبيريقية فهل تعضد نتائج الدراسات الإمبيريقية نتائج الدراسات التى تستند إلى نظرية أم لا ؟

ويلاحظ أن إطار موس وزملائه من أشمل الأطر السابقة والتى تستند إلى نظرية عن العلاقات المتبادلة بين الفرد والبيئة والتى تحدد الأنماط المناخية المتعددة بناء على ثلاثة مجالات رئيسية تلخص العلاقة بين الفرد والبيئة .

ثانيا : السياق الثقافى لنمو المراهق

المحددات البيئية الاجتماعية :

درج الباحثون على تأكيد دور البيئة بجانب ذاتية الفرد النامية فى تشكيل شخصية الفرد ، التى تؤثر بدورها فى البيئة المحيطة بها (٣٩ : ٦٠) ، (٥٧ : ٢٩١) ، (٨٤ : ٩) ، (٨٨ : ١٠٤ - ١٠٧) ، (٣٦ : ١٠٤) ، (٣٨ : ٣٧ - ٣٨) ، (٨ : ١٥ - ٢٨) لدرجة أنه بمجرد تكون شخصية الفرد ، تصبح عاملا مؤثرا فى نمو الفرد وتطوره .

والبيئة من وجهة نظر معظم الباحثين " عبارة عن النتاج الكلى لـ جميع المؤثرات التى تؤثر على الفرد من بداية الحمل حتى الوفاة " (٣٨ : ٦١) .

ويشير هذا التعريف إلى عملية التأثير " إذ لا يكفى وجود العامل أو المؤثر بل المهم هو تأثيره ، ومن ناحيه أخرى إدراك الفرد لهذا العامل .

فالبيئة لا يدرك المؤثرات المحيطة به كما هى فى الواقع ، بل كما يدركه الفرد أو طبقا للمعنى الذى يخلعه عليه ، إنها البيئة النفسية Psychological Environment وليست البيئية كما هى فى الواقع التى تحدد الكيفية التى يستجيب بها الفرد .

بالإضافة إلى هذا اختلاف إدراكات الأفراد للبيئة ، فلأفراد المختلفين هناك بيئات نفسية مختلفة ، ولذلك كان التأكيد دائما على أهمية فهم الفرد من وجهة نظره ومن واقع أطواره المرجعى (٥٧ : ٢٨٩) . ولذلك فإن إدراك الفرد يتأثر بعوامل كثيرة خاصة به ، مثل نوعه ، سنه ، قدراته ، ... وهكذا (١٢٣ : ٤١) ، (٣٨ : ٢) ، (٤٤ : ٢١) .

كما يشير تعريف البيئة إلى الشمول ، إذ يتضمن كل المؤثرات التى يمكن أن تؤثر على الفرد ، مهما كان نوعها ، طالما أنه مدركها ، كما يتضمن شمول دوره حياة الفرد كلها (٣٨ : ٦١) ، لذلك فإن الحقيقة الإنسانية المدركة ، تتسم بالكلية التى تتخلق عادة من تفاعل جمع من المؤثرات (١٠٤ : ٢٧٦) . وتبدأ هذه المؤثرات بالوراثة التى تبدأ عملها قبل وجود الفرد ، وذلك بطريق غير مباشر ،

عن طريق التكوينات الجسمية ، التى تتضح أهميتها فى أنها تحدد إمكانيات التفاعل مع البيئة المحيطة بالفرد (٣٨ : ٥٨) .

ومنذ أن يرى الطفل النور ، تبدأ بيئته الاجتماعية التى يعيش فيها ، فى تشكيله اجتماعيا حيث تحوله إلى شخصية اجتماعية متميزة ، ويذكر "جولد شتينر" أن الفرد يتوافق مع البيئة لسببين ؛ لأنها تمدّه بالوسائل التى تمكنه من تحقيق ذاته وفى نفس الوقت تشمل العوائق والعقبات التى فى شكل تهديدات وضغوط تعوق تحقيق الذات (١٢٣ : ٤٠٠) . وعليه فإن جميع ما يحدث للفرد ، يحدث فى موقف بيئى اجتماعى — فى البداية يقتصر على الأسرة فقط — ومهما يعيش الفرد ، فإن ذلك لا بد وأن يكون فى إطار التنظيمات الاجتماعية والقيم للثقافة التى يعيش فيها الفرد (٣٩ : ٤٥ — ٦٠) ، (٢٣ : ٦٤) . حيث تتطور الشخصية تدريجيا مرحلة بعد مرحلة ، ويتوقف تطور أى مرحلة من المراحل على التحقيق الناجح لتطور المرحلة التى سبقتها ، كما يتوقف كذلك على توفر النضج اللازم بالمرحلة ، ويتم النضج فى الوقت المناسب إذا توفرت الظروف البيئية ، وإذا لم تتوفر الخبرات المناسبة لتحقيق الكفاءة للحياة مع الآخرين فى هذه المرحلة من النمو ، تقل فرصة النجاح فى العلاقات الاجتماعية فى المستقبل (٣٨ : ٣٧ — ٣٨) وكما يتضح بعد ذلك عند الحديث عن دافع الكفاءة لهوايت .

إذن ، تُفهم الشخصية الإنسانية فى ضوء الإطار الاجتماعى الثقافى الذى يعيش فيه الفرد وفى ضوء التفاعل المتبادل بين الفرد وبيئته ، فمن الواضح أن الأنظمة الاجتماعية التى تقوم على تنشئة الطفل ، بدءاً من الأسرة ثم المدرسة . . الخ لها دور بارز فى عمليات التنشئة الاجتماعية بالشكل الدقيق الذى تشكل فيه خبرات الطفولة عادة بطريقة ثابتة ، كما أن كل ثقافة لها معاييرها الخاصة بالسلوك والتى تهتم بأن ينشأ الطفل وفقاً لها ، وما يجدر ذكره أن خبرات الطفل لا تصدر فحسب عن البناء الأسرى الذى نما فيه ، بل ثمة اتجاهات يكوّنها الطفل نحو من يرتبط بهم ، ويتقبل أوامرهم ونواهيهم . وقد كشفت الدراسات أهمية هذه الاتجاهات حيث أن لكل ثقافة طرقها الخاصة فى هذا الصدد ، وألقت الضوء على هذه الناحية بعض دراسات الأنثروبولوجيين مثل "مرجريت ميد" ، "روث بند كوست" ، والسيكولوجيين فى بيئتنا العربيه مثل "صموئيل مغاريوس" ، ١٩٥٧ ، "منيرة حلمى

١٩٦٥ " " حامد الفقى ، ١٩٧٦ " (٨٨ : ١٠٤ - ١٠٧) (٦ : ١٠٨) .
ولا يقف تأثير البيئة على الشخصية فى اتجاه السواء فقط ، بل ————
الضغوط البيئية التى يتعرض لها الطفل إلى الاضطراب السلوكى ، ويتفـسـق
الباحثون (٢٥ ، ٣١ : ١١٩) . (٣١ : ١٤٥) على ثلاثة مصادر رئيسية هى
الوراثة وخبرات الطفولة والضغوط البيئية ، بالرغم من أن كلا من هذه المصادر ركـفـيل
وحده ، بإحداث الاضطراب السلوكى ، لكن عادة ما يحدث هذا الاضطراب
السلوكى بسبب تفاعل هذه المصادر مجتمعة أو تفاعل اثنين منها على الأقل .
فمن المعروف أن بعض الأسر يسود فيها بعض الاضطرابات ، ولكن هـذا
لا يعنى أنها موروثة ، فقد تكون بسبب التأثير المباشر لعلاقة الزالديــــن
معاً أو مع الطفل .

النظريات التى تؤكد على المحددات البيئية الاجتماعية

— نظريات (فروم ، هورنى ، سوليفان ، أدلر) :

على الرغم من الأرضية المشتركة بين هذه النظريات (حيث تؤكد تأثير المتغيرات
البيئية الاجتماعية فى تشكيل الشخصية ، كرد فعل مقابل للوضع الغريزى للتحليل
النفسى الفرويدى) فإن كل نظرية تؤكد على مجموعة مختلفة من المتغيرات :
فاريك فروم ، يوقف معظم أهتمامه على الكيفية التى يشكل بها بنــــاء
وديناميات مجتمع محدد أعضائه ، بحيث يتناسب طابعهم الاجتماعى والقيم والحاجات
المشتركة لهذا المجتمع .

أما كارين هورنى ، فعلى الرغم من أعترافها بتأثير السياق الاجتماعى الذى
يعيش فيه الفرد ، فإنها تولى العوامل الحميمة داخل نطاق الأسرة خاصة أهتماما
أكبر من حيث صياغة الشخصية . وتشير هورنى إلى أن الأسرة يمكنها تجنب الصراع
أو حله ، إذا ربى الطفل فى أسر يتوفر فيها : الأمن والثقة والحب والاحترام
والتسامح والدفع العاطفى ، وأن هذه الصراعات مصدرها الظروف الاجتماعية .
فالشخص العصابى شخص خبر الصعوبات المحددة ثقافيا بصورة عادة ، وغالبا
عن طريق خبرات الطفولة (١٢٣ : ١٨١) .

وفي هذا الصدد تشبه نظرية سوليفان في العلاقات الشخصية المتبادلة
آراء هورنى أكثر مما تشبه آراء فروم ، فعند سوليفان ، تعد العلاقات الإنسانية
للطفولة المبكرة والمتأخرة والمراهقة ، ذات أهمية أكبر .
أما أدلر فعلى العكس من ذلك ، حيث يجوب المجتمع دون ما هدف محدد
بحثا عن عوامل ذات وزن للشخصية وهى ما يجدها فى كل مكان (١٢٣ : ٢٠٣) .

— وجهة نظر موراي :

لم يدع موراي أن سلوك الفرد يمكن تفسيره فى ضوء المعرفة بمالديه من حاجات
أو بنية شخصية ولكنه يعتبر السلوك — كما هو الحال فى نظام ليفين — دال —
لخصائص البيئة إلى جانب خصائص الشخص ، فالمكان والحي أو الوسط الذى يعيش
فيه الفرد ، ينبغى أن يوضع معا فى الاعتبار " وأن " التفاعل بين هذا الفرد
وبيئته هو وحدة قصيرة short unit مقنعة للبحث فى علم النفس " فالبيئة
وفقاً لما يذهب إليه موراي — تستطيع أن توفر الدعم اللازم للتعبير عن الحاجة
أو أن تكون مليئة بالحواجز التى تعوق السلوك الموجه نحو الهدف ومن شأن الضغط
البيئى " enviromental "press الذى يعمل فى تفاعل مع الحاجة
أن يحدد مدى طول فترة " الحدث السلوكى behavioral episode أو مدى
الزمن النفسى اللازم لتحقيق الهدف . ولقد سعى موراي أيضا ، مقتفيا أثر
" ليفين " إلى تمييز البيئة المدركة Perceived environment (ضغط بيتا
beta press) عن البيئة الموضوعية objective environment (ضغط
ألفا alpha press) . كما تأثر موراي فى تصوره النظرى للظاهرة النفسية
بالنماذج البيولوجية biological Models لهل وليفين ، أكثر مما تأثر
بالنماذج الفيزيائية ، فقد عمد إلى الاستفادة بصفة عامة ، بما توصل إليه البيولوجيون
من ملاحظات وتقارير وذلك بدءاً من دارون فصاعداً ، كما استفاد بنخيرهم من العلماء
خاصة ماكدوجل ممن استخدموا مفهوم الغريزة كأداة لهم .

وبصورة أكثر تحديداً فقد عمد موراي إلى إسناد النمو إلى العوامل البيئية ،
أى أن مجرى النمو لا يمكن فهمه بكفاءة دون توافر صورة كاملة للاوضاع الاجتماعى الذى
انتهت الحماية من خلاله . وقد قدم مجموعة مفصلة من المفاهيم " الضغوط " التى

تستهدف وصف بيئة الفرد ، ويعتقد أيضا أن الفهم الكامل للسلوك لا يتأتى إلا حين يتم وضوح كل من الذات والموضوع ، ويتضح من ذلك أن موراى يتقبل بل ويقوى من أهمية النظرة " المجالية " للسلوك .

مفاهيم الضغوط :

قدم موراى قوائم مختلفة للضغوط ، وهى تبين التأثيرات الجوهرية فى الطفولة ، وهى أيضا تعتبر تقديرا كميا للدلالة على قوتها أو على أهميتها فى حياة الفرد :

- ١ - ضغط نقص التأثير الأسرى ويشمل :
 - أ - التنافر الحضارى
 - ب - التنافر الأسرى
 - ج - التأديب المتقلب
 - د - انفصال الوالدين
 - هـ - غياب أحد الوالدين
 - و - مرض أحد الوالدين
 - ز - وفاة أحد الوالدين
 - ح - دونية أحد الوالدين
 - ط - تباين الوالدين
 - ى - النقص
 - ك - عدم الاستقرار المنزلى
- ٢ - ضغط الأخطار والكوارث الطبيعية .
- ٣ - ضغط النقص أو الضياع (فى التغذية - الممتلكات - الصحة - التنوع)
- ٤ - ضغط الاحتجاز ، الموضوعات الكابحة .
- ٥ - ضغط النبذ وعدم الاهتمام والاحتقار .
- ٦ - ضغط الخصوم ؛ الأقران المتنافسون .
- ٧ - ضغط ولادة أشقاء
- ٨ - ضغط العدوان :
- أ - سوء المعاملة من جانب الذكر الأكبر أو الأنثى الأكبر .
- ب - سوء معاملة من جانب الأقران
- ج - الأقران المشاغبيين .
- ٩ - ضغط السيطرة والقسر والمنع .
- ١٠ - ضغط العطف على الآخر ، التسامح .

١١ — ضغط العطف من الآخر ، طلب الرفق

١٢ — ضغط الانقياد ، المدح ، التقدير .

١٣ — ضغط الانتماء ، الصداقات .

١٤ — ضغط الجنس :

أ — العرض

ب — الإغراء "الجنسية المثلية ، الغيرية

ج — الاتصال الجنسي بين الوالدين .

١٥ — ضغط الخداع

١٦ — ضغط الدونية (بدنياً ، اجتماعياً ، فكرياً)

(١٢٣ : ٢٣٩ — ٢٥٢) ، (٩٥ : ٢٣ — ٢٤)

— نظرية أريكسون :

تأخذ وجهة نظر أريكسون في اعتبارها النمو السيكولوجي للفرد في علاقته بالمحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه ، ويعنى هذا أن الأحداث الاجتماعية في حياة الطفل تؤثر في شخصيته فيما بعد . ويسير النمو عنده من خلال المراحل التالية :

١ — المواجهة القائمة على أساس بيولوجي اجتماعي بين الطفل والبيئة

المحيطة به .

٢ — الأزمة المترتبة على هذه المواجهة .

٣ — النتائج النهائية لهذه المواجهة ، مصاغا في صورة الصفة ونقيضها ،

مثال ذلك "مواجهة المراهق قد يترتب عليها شعور بالهوية الذاتية

أو " أزمة الذاتية " المألوفة (٨ : ٢٥) .

ويقابل مرحلة المراهقة ، مرحلة الذاتية في مقابل تشتت الدور عند أريكسون :

والتي فيها تتحقق ذات الولد بأن يكون ولدا ورجلا ، وتتحقق ذات البنت بأن

تكون بنتا ، إذ أنه على كل منهما أن يهيأ ليلعب الدور المعد له في المجتمع ، فقد

ترك كل منهما مرحلة الطفولة خلفه وعليه أن يجد له مكانا الآن في مجتمعه أو يجد

له هوية ومفهوما للذات يتفق وفكرة الآخرين عنه .

وتشتت الدور هو عدم تأكد الفرد من هويته في المجتمع وبالتالي عدم معرفته

للساوك المناسب وفي نهاية هذه المرحلة يستطيع أن يتجاوز ذاته في المواقف

التي تتطلب ذلك دون خوف من فقدانه لذاته (٣٨ : ٢٣) .

— دافع الكفاءة لهوايت Competence Motivation (٢٧ : ٢٨)

بدأ علماء النفس النمائيين في العقد الأخير فقط يعاملون نظريات النمو المختلفة على أساس أنها متكاملة وليست متعارضة . وبالرغم من هذا ، فإنهم ينتقون النظرية (المدخل) المناسبة لتطبيقه في تفسير الظواهر النمائية التي يصلح في تفسيرها أكثر من غيرها ، وذلك دون أن يخطو هؤلاء العلماء خطوة أبعد من ذلك نحو إيجاد إطار موحد يستطيع أن يجمع بين هذه المراحل المختلفة (٨ : ٢٦ - ٢٧) .

وقد تصدى لصياغة هذا الإطار إسماعيل (١٩٨٢) (٨) مستخدماً مفهوم هوايت White عن دافع الكفاءة في تحقيق التكامل بين المدخل المعرفي والمدخل الدينامي في تفسير النمو . ويذكر المؤلف أن هوايت يرى أن جميع بنى الإنسان يولدون ولديهم دافع أولى نحو السيطرة على البيئة ، وهو ما يطلق عليه " دافع الكفاءة " وفي رأى هوايت أن افتراض وجود هذا الدافع يساعد على تفسير أنواع من السلوك لم يكن تفسيرها قبل ذلك بالأمر السهل . وإلا فكيف نفسر مثلاً ضحك الأطفال عندما يهزون الشخصخة (الجرجاشة) فتحدث صوتاً . إن ما يفرح الأطفال في مثل هذه الحالات هو شعورهم بالقدرة على التأثير (أى إحداث أثر ما) في البيئة المحيطة ، إنه إذا رآك من ناحية الطفل بأن نشاطه يمكن أن يجعل البيئة تستجيب له بطرق يقع زمامها في يده هو .

ولا يستمد هوايت الشواهد على وجود دافع الكفاءة هذا من فائدته — في تفسير أنواع السلوك غير الهادف فحسب ، بل أيضاً من فائدته في تفسير إصرار الطفل أحياناً على تعلم أشياء صعبة كركوب الدراجة أو القراءة مثلاً . ويلفت هوايت النظر إلى المحاولات المستمرة التي يبذلها الطفل في عامه الأول لمحاولة الوقوف بالرغم من كثرة المرات التي يقع فيها والمؤلمة له أو عندما يتمكن من المشي ، لا يسعه العالم من الزحف الذي يملؤه وهو يخطو يقدم ثابتة على الأرض . لقد أشبع دافعه إلى الكفاءة في أنماط هذا النشاط الإنساني الضروري . ولكن كيف يساعد هذا المفهوم في تكوين الإطار الموحد لنظريات النمو ، إن قيمة الإضافة

التي جاء بها مفهوم الكفاءة لا تكمن فقط في تفسير بعض النشاطات التي كانت تبدو بغير تفسير في حياة الرضع وصغار الأطفال ، بل في أنه قد ساعد على اعتبار السلوك المعرفي سلوكا تكيفيا ، شأنه في ذلك شأن السلوك الانفعالي والاجتماعي . ان مفهوم الكفاءة يمكن إعادة صياغته على النحو الآتي : نحن جميعا في " حاجة " إلى أن نتعامل بفاعلية (أى بكفاءة) مع البيئة (إذا كان لنا أن نتكيف معها) . ومن ثم فإننا نسعى بشكل أولى إلى تحقيق تلك الفاعلية (الكفاءة) إذ نرسلوكلنا جميعا وبشكل أولى مدفوع إلى تحقيق (الكفاءة) ولا فرق في ذلك بين سلوك معرفي أو حركي أو انفعالي أو اجتماعي . بعبارة أخرى فإن حاجة الكائن العضوي إلى التفاعل بكفاءة وفاعلية مع بيئته ، هي حاجة أولية . ولا فرق في ذلك بين بيئة مادية وبيئة اجتماعية (٨) .

الأسرة

أشار الباحثون إلى الأهمية الكبرى للأسرة ، بوصفها جماعة أولية — لئالها من قدرة — بحكم وظائفها المحددة مع الطفل — على رسم كيفية تعامله مع المواقف التي يواجهها ، أو بحكم وقوفها كإطار أساسي أو " خلية أولية " تتحدد في رحابها شخصية الفرد المستقبلية . وأن الشكل الذي تتم به تنشئة الطفل في رحاب الأسرة ، هو الذي يحدد حجم الدور الذي يقوم به المنشئون الآخرون . فبقدر نجاح الأسرة في أن ترسي لأبنائها دعائم الاحتكام إليها ، تتقلص منافذ تأثير المنشئين الآخرين ، وبقدر فشل الأسرة في هذا تتزايد منافذ التأثير الخارجي (٤٤ : ١٢) . ولا يتوقف دور الأسرة على المرحلة الحالية التي يمر بها الطفل ، بل يظل دور الأسرة مستمرا في المراحل اللاحقة لنمو الطفل (٥٧ : ٣٥٥) . فدور الأسرة واضح جلي ، حيث أن المهمة الرئيسية للمجتمع هي أن يمنح مراهقيه وشبابه ، الأدوار التي يتحملون فيها المسؤولية الاجتماعية والمهام البناءة ، حيث أن الثروة الحقيقية للأمة تكمن في ثروتها البشرية .

ولقد أكدت البحوث في مجال علم النفس ولا تزال تؤكد على حقيقتين تتعلقان بالتنشئة الأسرية وهما : —

- ١ — الدور المؤثر الذي تمارسه الأسرة خاصة فيما يتعلق بأسلوب تنشئتها لأبنائها ، في تخليق شخصيات هؤلاء الأبناء على نحو أو آخر .
- ٢ — انعكاس الخبرات التي يمر بها الأبناء في سنوات عمرهم المبكرة على طابع شخصياتهم في الفترات العمرية اللاحقة .

الاتجاهات الرئيسية في تناول الأسرة : (١٦ : ٣٣ - ٣٦)

١ — الاتجاه السيكودينامي

يحاول هذا الاتجاه الربط بين التحليل النفسي والأنماط أو الأنساق السائدة داخل الأسرة . ومن أبرز علماء هذا الاتجاه أكرمان Ackerman وبول Paul وآخرون ، ويهتم هؤلاء بتأثير العمليات المبكرة وخاصة العلاقة المبكرة بالموضوع وأثرها على تشكيل دينامية الفرد ، وبالتالي علاقاته الأسرية الحالية والتي تمتد جذورها إلى طبيعة العلاقة بالموضوع والتي استقرت ولا زالت تمارس بين أعضاء الأسرة ، وينظرون لمرض الأسرة بشكل عام على أنه نتيجة لفشل في عملية تطور الأسرة أساساً في ترك الفرد أو أفراد الأسرة يعيشون بتصورات سواء كانت شعورية أو لاشعورية غير مناسبة بل ومفرغة لما يتوقعه أو يتوقعونه من سلوك الآخر وسلوك الذات (١٦ : ٣٣ - ٣٤) .

٢ — الاتجاه البنائي : Structural Approach

يرى أصحاب هذا الاتجاه ، أن فهم دينامية الأسرة المشكلة ، يقوم بالدرجة الأولى على الاهتمام بالتفاعل الذي يحدث بين البيئة الخارجية والنسق العام للأسرة والنظم أو الأنماط الفرعية الداخلية للأسرة . كما يرى أصحاب هذا الاتجاه أيضاً ، أن أعراض الفرد تمثل ، وتعبر عن فشل الأسرة في تعديل بنائها حسب التغيرات البيئية ، حيث لم يعد البناء الأسري يستطيع أن يوفر متطلبات النمو لأعضائها .

وتؤكد المدرسة البنائية على أن الأعراض تستمد بقاءها من طبيعة واتجاه الحركة داخل بناء الأسرة ومن الأدوار التي تمارسها الأسرة ككل والتي تعطى لها نمطا خاصا بها ، فالنمط الخاص والأدوار المتبادلة التي تربط أعضاء الأسرة بعضها ببعض الآخر لا تعطى لنمط العلاقات شكلا محددًا فقط ، بل تضع على أفراد الأسرة مسئوليات متبادلة وملزمة لكل الأفراد وهذه الأدوار وما تتضمنها من مسئوليات متبادلة بين أفراد الأسرة ، تؤدي إلى ظهور الأعراض وتساعد على استمرارها في عضو أو أكثر ، إن الملل الذي يصيب التفاعل — كوظيفة للأسرة — هو الذي يؤدي إلى ظهور أنواع معينة من المشكلات أو الأعراض ويحدد طبيعتها ، ولذلك يرى البعض من أصحاب هذا الاتجاه ، أنه أياً كان تاريخ المشكلة الأسرية ، فإن الدينامية التي تؤدي إلى استمرارها تكون نشطة في نمط البناء الحالي للأسرة ، الذي يتكون من عمليات متتالية من التفاعل يترتب بعضها على البعض الآخر داخل الأسرة (ص ٣٥ - ٣٦) .

٣ - الاتجاه السلوكي :

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن سبب مرض الأسرة أو ما يطلقون عليه اختلال وظيفتها ، يظهر عندما يعجز أو يفشل أعضاؤها في تعلم المهارات الاجتماعية المناسبة ، أو عندما يقومون بإثابة سلوك مرضى لدى عضو من أعضائها أو يفشلون في التخلص من هذا السلوك .

فعلى سبيل المثال ، يقوم الطفل بالتفعيل *acting out* نتيجة لفشل الآباء في تحديد وتوضيح سلوك الطفل أو نتيجة للتردد أو التذبذب عند إرشاد الطفل ، وهم بهذا التصرف يقدمون نوعاً من الإثابة لسلوك طفلهم المرضى (١٦ : ٣٦) .

ويتضح مما سبق أن أكثر الاتجاهات ارتباطاً بالدراسة الحالية هو الاتجاه البنائي حيث يركز على التفاعل المتبادل بين البيئة الخارجية والأسرة وأنماطها الفرعية الداخلية ، وعلى مدى ما يوفره البناء الأسري من متطلبات لنمو أعضاء الأسرة .

المراهقة

تعريف المراهقة :

من الناحية البيولوجية ، هي تلك المرحلة التي تبدأ من بداية البلوغ (أى بداية النضج الجنسي) حيث اكتمال نمو العظام ، وتقع هذه المرحلة عادة ما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة وإن كانت فروق كبيرة فى هذه الناحية .

من الناحية النفسية الاجتماعية ، تعتبر مرحلة انتقال من طفل يعتمد كل الاعتماد على الآخرين إلى راشد مستقل مكثف بذاته . . .

ولاشك أن تعريف مرحلة المراهقة ، بأنها مرحلة انتقال يتطلب تحقيق توافق جديد ، تعرضه ضرورات التمييز بين سلوك الراشد فى مجتمع ما ، ولما كانت الفترة التى يتم فيها هذا الانتقال قد تطول أو تقصر تبعاً للثقافة التى تسود ذلك المجتمع ، لذلك ، فبالرغم من أن جميع الأطفال ، أينما كانوا يمرون بنفس التحولات البيولوجية فى مرحلة المراهقة ، إلا أن التغيرات النفسية والاجتماعية التى تصاحب هذا التحول ليست نمطية . . إذ أن ظهورها بشكل أو بآخر ، إنما يرتبط أساساً بالثقافة التى يعيش فيها الطفل (٦ : ١٩) .

وقد أثبتت ذلك الدراسات الأنثروبولوجية لمرجريت ميد وروث بندكت ، والدراسات النفسية لكل من أوفر Offer (١٩٦٩) وصموئيل مغاريوس (١٩٥٧) ومنير حلمى (١٩٦٥) وحامد الفقى (١٩٧٦) ، فقد اتضح أن مفهوم " أزمة المراهقة " لا تظهر بالشكل الحتمى الذى ذكره " استانلى هول " (٨ ، ٨٨) .

أجريت بعض البحوث على المراهق العربى ، بهدف بيان أوجه الشبه ، والاختلاف مع المراهق الغربى ، ففيما يتعلق بموضوع " نمطية المراهقة " أو الشكل العام للتفاعل بين المراهقين والكبار المحيطين به أو بين المراهق والأنداد ، وفيما يتعلق بأنواع المشكلات التى يعانى منها المراهق أو المواقف الحرجة فى حياته ، فى كل ذلك أوضحت البحوث ، أن هناك تشابها كبيرا بين الثقافتين الغربية والعربية . ومن ناحية أخرى فإن مدى حدة المشكلات بالنسبة للمراهق ، وكذلك

مدى تواترها بين المراهقين ، وموقف الثقافة التقليدية من بعض الأمور كاختلاط الجنسين ، وما إلى ذلك، تختلف بالطبع من ثقافة إلى أخرى (٦ : ١١) .

طبيعة التغيرات السيكولوجية في مرحلة المراهقة :

إن مفتاح فهم سلوك المراهق وما يعترضه من تغيرات ، إنما يكمن في العلاقة التي تقوم بينه وبين مجتمعه ، بينه وبين أسرته ، أصدقائه ، مدرسته ، القيم والمعايير الثقافية السائدة في المجتمع بشكل عام ، هذه العلاقة تتضمن نوعاً من المواجهة ، وتتم هذه المواجهة ، على وجه الخصوص في مواقف معينة هي تلك التي تتعلق بالأدوار المتوقعة أن يقوم بها في حياته كراشد مستقبلاً وهي مواقف يكون فيها المراهق شديد الحساسية ، وبالتالي فإنه يصبح من السهل أن تترتب على المواجهة في هذه المواقف الحساسية أزمات بالنسبة للمراهق . ولكن هذه الأزمات لا تعني الكوارث أو المضلات التي ليس لها حل ، بل هي مجرد نقاط تحول يعتمد الحل فيها على طريقة المواجهة ذاتها أو بمعنى آخر ، فإن الشكل الذي يتخذه تطور سلوك المراهق في هذه المرحلة إنما يمتد على اتجاه المجتمع نحوه في هذه المواقف الحساسة . والتي يمكن الإشارة إليها من خلال تناول طبيعة التغيرات النفسية والاجتماعية التي يتعرض لها المراهق ، أي تناول عملية النمو ذاتها عند المراهق .

وقبل تناول عملية النمو ، يجب حصر المواقف التي يتعرض لها المراهق والتي تمثل مشكلات له ، وهي كالآتي : —

- ١ — مواقف الجنس .
- ٢ — مواقف الاستقلال الذاتي .
- ٣ — مواقف العلاقات الاجتماعية مع الآخرين .
- ٤ — مواقف الاستقلال الاقتصادي واختيار المهنة .
- ٥ — مواقف وقت الفراغ والترفيه .
- ٦ — مواقف التحكم في الذات أو الضبط الانفعالي .
- ٧ — مواقف التفكير والتقييم (٨ ، ٥٧ : ٤٦٤ — ٤٦٨) .

ومما يجدر ذكره أن هذه المشكلات ليست بالضرورة من نصيب كل مراهق ، وإذا

حدثت لبعض المراهقين ، فالتحدث بنفس الدرجة من الحدة لهم جميعاً —
وإنما هي مرهونة بالظروف الثقافية التي يعيش فيها المراهق ، وبشكل عام
فإن الثقافة التي نعيش فيها اليوم وخاصة في المدن ، تستلزم من الفرد الإنساني
أن يطيل فترة طفولته الاجتماعية حتى يحصل على استقلاله الاقتصادي ، ففى
حين أن الطفولة الجسمية والعقلية ، تنتهى على الأكثر فى بداية فترة المراهقة
وبذلك يقع الفرد فى تناقض ومواجهة مع نفسه ومع مجتمع الكبار المحيطين ، وفى
هذه المواجهة وفى هذا التناقض ، يكمن مفتاح فهم هذه الفترة من النمو الانساني
(٨ : ٢٥ - ٣٠) .

ويقتصر الباحث فى تناوله لعملية النمو للمراهقين على النمو الاجتماعى والنمو
الانفعالى بالقدر الذى يكفى لفهم متغيرات الدراسة الخاصة بالمراهقين .
أولا النمو الاجتماعى للمراهق :

أ - الصراع مع الأسرة :

تسلم وجهات نظر لها مكانتها سواء فى علم النفس أو علم الاجتماع بأن
الصراع بين المراهق ووالديه هو أحد حقائق الحياة التى لا مناص منها ، إلا أن
وجهات النظر هذه قد تختلف بعد ذلك فى تفسير طبيعة هذا الصراع والعوامل
المؤدية إليه : —

١ - نظرية التحليل النفسى :

ترى أن هناك فورة من الإثارة الجنسية فى أثناء المراهقة ، وتحمل
معها تجديدا لموقف أوديب ، ولكن المراهق قد اكتسب " أنا أعلى "
لا يسمح له بالتفكير فى أية علاقات جنسية بالمحرمات ، وحيث أن المراهق
لا يستطيع أن يتخلص لا من داوغة الجنسية ، ولا من ضميره اللاشعورى ،
فلا يبقى أمامه إلا أن ينكر أبويه أو يثور عليهما أو يرفض سلطتهما . الخ .
وشمة منظرون آخرون للتحليل يعتقدون أن الآباء هم المسئولون عن
ذلك الصراع بين الآباء والأبناء فى مرحلة المراهقة ، فعندما يرى الآباء
علامات النضج تظهر على أبنائهم ، فإن ذلك يولد لديهم الخوف ، لأن ذلك

يعنى تقدم الآباء فى السن • وما يزيد من هذه المخاوف عند الآباء • التعارض الواضح بين ما يبدو على المراهقين من رغبة فى التلقائية والتشكك فى الأوضاع القائمة • وبين ما يعقده الآباء من آمال على مستقبل أبنائهم فى النجاح والإنجاز والمركز الاجتماعى المرموق • ولكى يحقق الآباء هذه الآمال • فإنهم يتحملون أعباءها • وبالتالي يتوقعون من أبنائهم أن يسلكوا سلوك الطاعة والتأديب فى المقابل • هذا القسر من ناحيه الآباء • قد لا يجد الاستجابة المطلوبة من ناحيه الأبناء • فتكون الثورة •

٢ - وجهة نظر الاجتماعيين :

ينظر بعض العلماء الاجتماعيين إلى هذا الصراع على أساس أنه ظاهرة اجتماعية • حيث يعتقد البعض أن وجود "فجوة جيلية" (أى بين جيل الآباء وجيل الأبناء) أمر حتمى فى مجتمع سريع التغير • فالآباء ينشئون أبناءهم بناء على خبرتهم هم (أى خبرة الآباء) ولكن هذه الخبرة سرعان ما تصبح شيئاً عفا عليه الزمن • ولذا فإن الفجوة الجيلية ليست فقط مشكلة تواصل أو تفهم وإنما هى نتيجة لشعور الجيل الجديد بأن حكمة الجيل القديم • قد أصبحت لا تتشى مع مطالب العصر فضلا عن مطالب المستقبل •

وهناك من يعزو الصراع بين الأبناء والآباء إلى عزلة الشباب بما يدور فى المجتمع التكنولوجى الحديث • وتقود هذه العزلة إلى التبعاد والشك والانفصال وبالتالي إلى التمرد (٨ : ٧٥ : ٧٩) •

ومما جدر ذكره • أن هناك عوامل نفسية واجتماعية تحدد شكل ودرجة هذا الصراع وكذلك المراحل التى يمر بها.

ب - مراحل الصراع ودرجة حدته :

فى الوقت الذى يترك فيه المراهق مرحلة الطفولة • ويتجه بالتدريج نحو الرشد • وهو الوقت الذى لا بد أن يحقق فيه بالتدريج درجات متصاعدة مسن الاستقلال والمسئولية • يجد المراهق نفسه مضطرا إلى أن يبقى فى موقع الإبن أو الابنة تماما كما كان فى السابق • مثل هذا التناقض قد يوقع المراهق فى درجة من درجات الأزمة التى تقوده إلى الصراع مع السلطة •

ومما يجدر ذكره ، أن هذا الصراع لا يكون بالضرورة صراعا حادا بالنسبة لجميع المراهقين ، فمعظم المراهقين يمرون بتلك الفترة من النمو دون ماصراع حاد مع الوالدين ، خاصة البنات ، ويتوقف هذا بالطبع على تقاليد المجتمع وعاداته ولذلك يفضل بعض الباحثين أن يتحدث عن "الأزمة السوية" لكى يعبر عما يحدث لمعظم المراهقين فى هذا المجال .

وما يجب ملاحظته أن حالات الصراع بين المراهق والوالدين لا تحدث بنفس الحدة على طول فترة المراهقة ، فالمراهق العادى يمر بأزمة الصراع هذه فى الفترة من ١٢ - ١٤ سنة ، وفى هذه الفترة يبدي المراهق ميلا إلى الثورة أو التمرد على سلطة الوالدين بطريقة أو بأخرى ، ومع ذلك فإن النزاع قد ينشأ لأسباب واهية (٨ : ٨٠) .

ومن ناحية مناطق الصراع بين الوالدين والمراهقين ، فقد اتضح أن هناك "منطقتين" بين الوالدين والأبناء وهما : توزيع المسئوليات فى الأسرة وطرق إنفاق المصروف الشخصى ، كما أن هناك منطقة للصراع مع الأم وهى اختيار الملابس ومنطقة للصراع مع الأب وهى استخدام التليفون ، وكانت أقل المناطق صراعا مع الوالدين هى مشاهدة التليفزيون . وكما كان مقترحا من الدراسات السابقة فإن مناطق الصراع مع الأم كانت ذات طبيعة شخصية ، فى حين أن مناطق الصراع مع الأب كانت تتعلق أكثر بالتوجهات الواقعية للأبناء ، وبالرغم من هذه الاختلافات فإن مناطق الصراع مع الأم كانت أكثر شيوعا من مناطق الأب خاصة المناطق التى تتعلق بالأسرة (١٩٠) ، (٥٧ : ٣٥٣ - ٣٥٤) .

ج - اتجاهات الوالدين وعلاقتها بأزمة الصراع :

توضح الدراسات أنه عند ما يحاط الطفل بجو ديمقراطى فى المعاملة وعند ما نشرح الأسباب التى من أجلها تتخذ القرارات ، وعند ما تسير الأمور بطريقة تعتمد على منطق مقبول ، فإن نتيجة ذلك أن يصبح الطفل أكثر تحملا للمسئولية ، وأكثر حساسية للمبادئ الخلقية وأكثر قدرة على ضبط الذاتى وربما كان الطفل الذى ينشأ على هذا الأسلوب أقل احتياجا إلى القواعد الصريحة المحددة ، إذ أنه يكون أميل إلى امتصاص القيم الوالدية (٨ : ٨٣) .

ومما يجدر ذكره ، أن المراهق يستمد توجيهه من كل من الوالدين والرفاق وأن هناك معامل ارتباط موجبا مرتفعا بين الاستعداد للانصياع إلى جماعة الرفاق في سلوك مضاد للمجتمع من ناحية ، وعدم احترام الوالدين وغيرهم من الكبار من ناحية أخرى . كما وجد أن هذا الارتباط يظهر بشكل أكبر في حالة الكبار من غير الوالدين . فالطفل الذي يقل احترامه للكبار من غير الوالدين يكون أشد ميلا إلى الاستسلام لضغط جماعة الرفاق من الطفل الذي يزداد احترامه لهؤلاء الكبار (٨ : ٩٣) .

النمو الانفعالي للمراهق :

بوصول الفرد إلى مرحلة المراهقة ، وضمن مراجعته لجميع الأمور والأحكام التي كان يأخذ بها كقضية مسلمة من الماضي ، يبدأ في التفكير في ذاته والاهتمام بتحديد الصفات أو الخصائص التي تتميز بها هذه الذات . والصفات التي يبحث عنها المراهق في هذا المجال ، هي تلك التي ترضى تقديره لذاته دون أن تغترب به اغترابا جذريا عن البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها . إن تحديد هذه الصفات يكون بمثابة الأرض الصلبة التي يقف عليها المراهق استعدادا للقيام بأدوار الراشد .

بعبارة أخرى فإن المراهق في سبيله إلى تحديد ذاتيته (أو هويته) عليه أن يحدث تكاملا بين : -

- ١ - ما اكتسبه في الماضي من توحيد مع قيم وأفراد وجماعات معينة .
- ٢ - النظام القيمي الراهن .
- ٣ - أهدافه وطموحاته للمستقبل .

ولا يتم إحداث هذا التكامل غالبا إلا بعد فترة من التساؤل والشك وإعادة التقييم والتجريب ، يمر فيها المراهق بتجربة مليئة بالمعاناة والبطولة في نفس الوقت ، هي مانسمية "بأزمة الهوية" .

على أن جهود المراهق في سبيل تحديد ذاتيته ومحاولاته في هذا الاتجاه ، قد تقوده - لسوء الحظ وبسبب ظروف متعددة ومقدمة - إلى التمرؤ في منزلقات لا توافقية كالإغتراب ، والتبذل وعدم الاكتراث ، والانتماء إلى جماعات

متطرفة ، وهجران المجتمع كلية (٨ : ١٨٥ — ١٨٦) .

ومن مظاهر النمو الانفعالي للمراهق ما يأتي :

- الحساسية الانفعالية : حيث لا يستطيع المراهق غالباً — التحكم في المظاهر الخارجية لحالته الانفعالية ، ويرجع ذلك إلى عدم تحقيق التوافق مع البيئة المحيطة به ، مثلاً في الأسرة والمدرسة والمجتمع .
- ثنائية المشاعر أو التناقض الوجداني : فقد يصل الحال بالمراهق أن يشعر بالتمزق بين الإعجاب والكراهية وبين الانجذاب والنفور بالنسبة لنفس الشيء أو الموقف ، ويرتبط بثنائية المشاعر والتناقض الوجداني نقص التناسق والتكامل بين دوافع المراهق النفسية ، ويصدق هذا بصفة خاصة على الدافع الجنسي .
- مشاعر الغضب والثورة والتمرد نحو مصادر السلطة في الأسرة والمدرسة والمجتمع خاصة ، تلك التي تحول بينه وبين تطلعه إلى التحرر والاستقلال .
- ويلاحظ أيضاً الخوف في بعض المواقف ، عندما يتعرض المراهق للخطر ، حيث يستجيب المراهق للخوف ، ومواقف الخوف ذات الطبيعة الاجتماعية — خاصة والتي يدرك أنها تهدد مكانته الاجتماعية . ومن أهم موضوعات الخوف ، المخاوف الأسرية مثل الخوف من تفكك الأسرة (٥٧ : ٣٤٨ — ٣٤٩) .